

التوبة.. مستلزما لها وآثارها



«اهتم الإسلام اهتماماً خاصاً بمسألة توبة الإنسان إلى ربه.. فقد حثت الآيات الكريمة والروايات الشريفة على التوبة لدرجة أمر الله سبحانه الجميع بها بقوله عزّ من قائل: (وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) (النور/ 31). كما اهتم الأنبياء والأولياء والصالحون بها وإن اختلف نوعها لدى كل منهم. فقد ورد في الحديث الشريف مثلاً: "التوبة حبل الله وممد عايته، ولا بدّ للعبد من مداومة التوبة على كل حال، وكل فرقة من العباد لهم توبة، فتوبة الأنبياء من اضطراب السرّ، وتوبة الأصفياء من التنفس، وتوبة الأولياء من تلوين الخطرات، وتوبة الخاص من الاشتغال بغير الله، وتوبة العام من الذنوب...". وقال (ص): "توبوا إلى الله فإنني أتوب إلى الله في كل يوم مائة مرة". فما هي التوبة؟ وكيف يتوب المرء إلى ربه؟ معنى التوبة: قال تعالى: (وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنْزَلَ مِنْ عَمَلٍ مِّنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنزَلَ نَزَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) (الأنعام/ 54). وقال سبحانه (إِنَّ زَنْمًا التَّوْبَةَ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ...) (النساء/ 17). وقال أيضاً: (وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمْ الْعَذَابُ...) (الزمر/ 54). وقال

النبي (ص) في معرض حديثه مع أصحابه عن التوبة: "ولولا أنكم تذنبون فتستغفرون أياكم.. لخلق الله خلقاً حتى يذنبوا ثم يستغفروا أياكم فيغفر لهم.. إن المؤمن مفتن تواب". فالواضح إذاً من خلال الكثير من الآيات والروايات أن التوبة أوبة وإنابة، وهي عبارة عن تراجع الإنسان عما اقترفه وأقدم عليه من فعل سيئ، قبيح، يمقته أياكم ولا يرضاه.. فيندم الإنسان على فعلته تلك ويتراجع عنها منيباً إلى ربه، تائباً من فعلته، محاولاً التخلص من التبعات والآثام التي لحقت به ولزمتها، فيلجأ إلى ربه يرجوه مستغفراً أن يمحو عنه سيئته التي اقترفها، ويغفر له الذنب الذي سجل عليه ولحقه، واعداء ربه بأن لا يعود إلى الذنب ثانية.. ومن الطبيعي عند أياكم الرؤوف بعباده أن التائب من ذنبه كمن لا ذنب له، إذ إن التائب حقيقة لا يتوب ولا يقدم على التوبة إلا إذا تميز ببعض المواصفات، فهو: 1- يؤمن حقيقة بأياكم واليوم والآخر وبمراقبة أياكم له وتسجيله السيئة عليه، وإلا لم يبال بما فعل ولما اهتم ورجع إلى ربه يستغفره. 2- يؤمن برحمة أياكم ولم يأس منها، فهو الرب الغفور الرحيم، يغفر له ذنبه ويرحمه لسوء حاله. 3- يقر بين يدي ربه بحقيقة العبودية لذات الربوبية. قال تعالى: (وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلِإِذْنِهِ يُتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا) (الفرقان/ 71). كيفية التوبة: في الحقيقة كثيراً ما يذنب الناس ويتوبون ثم لا تقبل توبتهم، وما ذلك إلا لابتعادهم عن شروط التوبة الواجب توفرها لقبول توبتهم من ترك الذنب وعدم تكراره أو الإصرار عليه والندم والاصلاح وغير ذلك.. فرفض التوبة إنما يعود لاستمرار حالة السوء وحالة الجهالة التي عبرت عنها الآية الكريمة، وغالباً ما يقارن حالة الجهالة تكرار الذنب والإصرار عليه وعلى المعصية، أو تأخذ صاحبها العزة بالاثم، أو على الأقل يقارن الجهالة قلة السعي أو عدمه للتخلص من التبعات والآثار والعواقب السلبية والوخيمة للمعصية السابقة. ولذا ورد في الحديث الشريف: "التائب إذا لم يستن أمر التوبة فليس بتائب: يرضي الخصماء، ويعيد الصلوات، ويتواضع بين خلق، ويتقي نفسه من الشهوات، ويهزل رقبته بصيام النهار". وعن النبي (ص): "إذا تاب العبد ولم يرض الخصماء فليس بتائب.. ومن تاب ولم يغير مجلسه وطعامه فليس بتائب.. ومن تاب ولم يزد في العبادة فليس بتائب.. ومن تاب ولم يغير لباسه فليس بتائب.. ومن تاب ولم يقصر أملة ولم يحفظ لسانه فليس بتائب..". وعن الإمام علي (ع): "إن الاستغفار درجة العليين، وهو اسم واقع على ستة معانٍ: أوّلها الندم على ما مضى، والثاني العزم على ترك العود إليه أبداً، والثالث أن تؤدي إلى الخلقين حقوقهم حتى تلقى أياكم أملس ليس عليك تبعة، والرابع أن تعتمد إلى كل فريضة (عليك) ضيعتها فتؤدي حقها، والخامس أن تعتمد إلى اللحم الذي نبت على السحت فتذيبه بالأحزان حتى تلتصق الجلد بالعظم.. والسادس أن تذيب الجسم ألم الطاعة كما أذقته حلاوة المعصية..". وبالعودة إلى الآيات نرى أنها تقرر التوبة بأمور: الإصلاح، العمل الصالح،

الإيمان، كما في قوله تعالى: (إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا...) (مريم/ 60). (إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا...) (الفرقان/ 70). (وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلِإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا) (الفرقان/ 71). (فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ...) (المائدة/ 39). (.. ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ...) (الأنعام/ 54). (وَلِإِنَّ رَبِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى) (طه/ 82). (.. ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا...) (الأعراف/ 153). التسوية بالتوبة: فالتوبة المقرونة بالإيمان والصلاح والعدل والهداية فضلاً عن الإسراع بها هي التي يتقبلها الله سبحانه: (.. ثُمَّ يَتُوبُ مِنْ قَرِيبٍ...) (النساء/ 17)، وقد ورد في المأثور: "عجلوا بالصلاة قبل الفوت، وبالتوبة قبل الموت". ومن لم يسارع إلى التوبة دخل في عداد المسوفين لها، خصوصاً إذا أخرها حتى يدركه الموت أو يحضره، وهنالك ليس معلوماً أبداً أن تناله رحمة الله بالتوبة لأنّه قد خلا بين نفسه وبين الركون إلى حالة الجهالة التي انغمس فيها ومعها بالسيئات والشهوات والملذات في غفلة عن ذكر الله وذكر الآخرة، وكذلك عندها يُنسى من رحمة الله والعباد بالله، فلا ينفعه عندها الانتباه، لحظة الموت ولحظة لا ينفع الندم. قال تعالى: (وَلَا يَسْتَرْجِعُ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ) (النساء/ 18). فعندها ليس لذلك الإنسان إلا (أَنْ تَقُولَ نَفْسُ يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّخِرِينَ * أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ * أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ) (الزمر/ 58-56). آثار التوبة: لعل من أهم وأنفع آثار التوبة على التائب أمرين: ستر الله على التائب، وتبديل سيئاته حسنات.. قال تعالى عن دعاء الملائكة قولهم: (فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ * رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ * وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ...) (غافر/ 7-8). وقال تعالى عن التائبين: (إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا) (الفرقان/ 70). وعن النبي (ص): "من تاب تاب الله عليه، وأُمرت جوارحه أن تستر عليه، وبقاع الأرض أن تكتفم عليه، وأُنسيت الحفظة ما كانت تكتب عليه". وعنه أيضاً (ص): "يؤتى بالمؤمن المذنب يوم القيامة حتى يوقف بين يدي الله عز وجل فيكون هو الذي يلي حسابه.. حتى يوقفه على

سيئاته كلها، كل ذلك يقول: أعرف، فيقول سترتها عليك في الدنيا وأغفرها لك اليوم،
أبدلوها لعبدي حسنات، فترفع صحيفته فيقولون: سبحان الله! ما كان لهذا العبد سيئة واحدة".
وعن الصادق (ع): "إذا تاب العبد توبة نصوحاً أحبه الله تعالى فستر عليه في الدنيا
والآخرة". وعن الرضا (ع): "التائب من الذنب كمن لا ذنب له". وبعد هذا هل للإنسان عذر في
عدم الإسراع لإجابة دعوة ربه في قوله سبحانه: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تَوْبُوا
إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا...) (التحريم/ 8). خصوصاً وأنّه ورد في معناها: "أن
يتوب الرجل من ذنب وينوي أن لا يعود إليه أبداً" وأنها "ندم بالقلب واستغفار باللسان
والقصد على أن لا يعود". ▶ المصدر: مجلة نور الإسلام/ العدد 47 و48 لسنة 1994م